الجمال الفنى والعقيدة الدينية
فى القرآن الكريم
للأستاذ سيد قطب
— ١ —

منذ أسبوعين قرأ الناس فى الرسالة « مناقشات » الأستاذ عبد المنعم خلاف حول « التصوير الفنى فى القرآن » وحول « النطق الوجدانى » كذلك .

وإذا أنا عدت اليوم إلى مناقشة هذه المناقشات ، فإنما يدعونى إليها أنها طريقة مضمونة لتوجيه النظر إلى الجمال الفنى فى القرآن من زاوية لم تعرف قبل الآن . فأنا أزعم أن هذا الجمال قد بقى مجهولا فى الغالب ، منذ أن حاول تجليته الإمام « عبد القاهر » فوصل إلى أقصى ما يتيحه له عصره ... ثم لم يتابعه أحد فى الطريق الصحيح ، إلا فلتات تقع بين الحين والحين .

وأنا أزعم كذلك أن الأدب العربى لم ينتفع الانتفاع الواجب بكتاب الإسلام المقدس ، كما انتفعت آداب الأمم المسيحية بكتابهم المقدس من الوجهة الفنية ... فكل تجلية لطريقة القرآن الأدبية ولمواضع الجمال فيها على طريقة فنية شاملة إنما هى كسب للأدب العربى — ولو جاء متأخراً جد التأخر عن موعده — وتوسيع لآفاق النظرة الفنية للبلاغة ، واتجاه بها إلى «النقد الفنى» الذى كان يجب أن تصير إليه ، لو لم تركد عند القواعد البلاغية الجافة التى يحاكون إليها الجمال الفنى فى الأدب العربى عامة

* * *

لا يزال الأستاذ عبد المنعم يجادلنى حول طريقة التعبير المفضلة فى القرآن ، وحول العقيدة بين المنطق والوجدان . فلنتحدث اليوم عن المسألة الأولى . فأنا أزعم أن الطريقة المفضلة هى « التصوير » ويرى هو هذا الزعم مبالغة دعا إليها مجرد الحماس .

وحين أحيله على المصحف لينظر صدق ما أتجه إليه يرى أننى أحيله إلى محال على طريقة « جحا » فى عد نجوم السماء !

ولكنه يفتح المصحف هنا وهناك فيجد أمثلة لا تنطبق عليها القاعدة ، ويرى مواضع للتعبير لا يبرز فيها التصوير . وعندئذ يحاكمنى إلى هذه المواضع وإلى أمثالها ... ما دام لا يستطيع أن يسرد « القرآن كله » فى مجلة الرسالة للاستشهاد !

وأحسب : أن ليس هكذا تكون مقاييس الفنون !

والذى أفهمه أنا حين أقول عن التصوير فى القرآن : « فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة » أو حين أقول : « والأمثلة على هذا الذى نقول هى القرآن كله حيثما تعرض لغرض من الأغراض التى ذكرنا ... »

الذى أفهمه حين أقول هذا : أن السمة الواضحة التى تحدد « عنوان » الطريقة المتبعة فى القرآن هى سمة « التصوير » وأن هذا لا يعنى انتفاء نص أو عدة نصوص لا تتضح فيها هذه السمة . إنما الطابع العام هو الذى يعنينى ، وهو الذى يعنى كل ناقد ينظر فى عمل فنى ، فيبحث عن السمات العامة فيه ، ولن يجد من يقول له : إن هنا سطراً أو فقرة أو صفحة لا تتضح فيها هذه السمة . فذلك آخر ما يقال فى الحكم على الفنون .

فأما حين نكون فى المعمل فنقول إن خصائص « الأكجين » هى كيت وكيت . فإن لكل باحث أن يقول : نعم أو كلا . إن هناك خصيصة ذكرت خطأ ، أو هناك خصيصة نسيت . فالحكم غير صحيح !

وهذه هى نسخة المصحف التى كانت مرجعى فى أثناء تحضير كتابى . تحمل صفحاتها « تأشيراتى » على مواضع التصوير فى القرآن . وهأنذا لا أكاد أجد صفحة واحدة خلت من موضع يحمل إشارة إلا أن تكون تشريعاً ... وهذا حسبى لتقرير هذه الحقيقة التى قررتها فى كتابى بعد التشبع بطريقة القرآن ، والحياة فى جوه أكبر وقت مستطاع .

بل هأنذا أنظر فى كلمة الأستاذ عبد المنعم الأولى التى يعدد فيها طرائق التعبير القرآنى فيقول : « إنى أتركك له أن يستعرض صفحات القرآن فسيجد أن التصوير الفنى أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة فى القرآن ؛ وليست هى الغالبة ولا الكثيرة (١) فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المتكافىء المعنى واللفظ الذى يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها (٢) وتارة يستعير لفظة واحدة من غير أسرة الألفاظ التى فى الجملة ليحرك بها الخيال ويلمس الحس لمسا رقيقاً (٣) وتارة تكون ألفاظ الحقيقة

وملابسات الخيال متساوية (٤) وتارة تكون ملابسات التصوير وإثارة الخيال هي الغالبة (٥) وتارة تكون هي الكل ... »

فهذه خمس طرائق للتعبير عددها الأستاذ عبد المنعم ... أنظر فأرى أربعاً منها مما أعنيه حين أذكر طريقة التصوير . وواحدة فقط هي التي تسلك الطريقة الذهنية المجردة . وتكملة لهذا البيان أقرر أن هذه الطريقة تكثر في مواضع التشريع وفي بعض مواضع القرآن لأنها تكاد تطرد في سائر الأغراض .

أم لعل الأستاذ عبد المنعم لا يرى التصوير إلا في الطريقة الخامسة وحدها ؟ هكذا فهمت منه حين يقول تعقيباً على النصوص التي استشهد بها في مقاله الأخير !

« فأين في هذه الآيات وأمثالها الكثيرة « التصوير الفني » الذي لفت نظر الأستاذ سيد وأثار خياله حتى وهو طفل بحبكته في اللوحات ذات الوحدة والتناظر والتمثيل الجامع ذي الظلال والأجواء الشاملة كما يتجلى في « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ... »

وجوابي على هذا أن هذا اللون « الفاقع » من التصوير ليس من الضروري أن يتحقق دائما لنطلق عليه عنوان « التصوير » وإذا كان هذا اللون هو الذي لفت خياله في الطفولة ، فهذا شأن الطفولة التي لا تلفتها إلا الألوان الزاهية الصارخة . فأما حين تكتمل الحواس الفنية ، فهي خليقة أن تدرك أدق الخطوط وأهدأ الألوان ، وتنفعل بها أشد الانفعال ... وهذا هو الذي كان !

ولكن أكنت أنا مقصراً في التنبيه إلى ما أعنيه بالتصوير في القرآن ، وهل تركت مجالا في كتابي لمثل هذا اللبس !

فلنعد إلى بعض نصوص الكتاب :

جاء في صفحة ٣٢ من الكتاب ، في فصل « التصوير الفني »

« ويجب أن نتوسع في معنى « التصوير » حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالتخيل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل . وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان ... »

وجاء في صفحة ٦٠ وما بعدها في فصل « التخييل الحسي والتجسيم » بعض التطبيق لهذه القواعد :

« لون من ألوان « التخييل » يمكن أن نسميه « التشخيص » يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطي ، وتتبدى لهم في شتى الملابسات ، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه في توفز وحساسية وإرهاف .

« هذا هو الصبح يتنفس . (والصبح إذا تنفس) فيخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسماء .

« وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركا : (يُغشي الليل النهارَ يطلبه حثيثاً) ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة التي لا نهاية لها ولا ابتداء .

« أو هذا هو الليل يسري : (والليل إذا يَسْرِ) فتحس سريانه في هذا الكون العريض ، وتأنس بهذا السارى على هينة واتئاد .

« وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين يوجه إليهما الخطاب فتسرعان بالجواب : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائعين) والخيال شاخص إلى الأرض والسماء ، تدعيان وتجيبان الدعاء .

« وهذه هي الأرض « هامدة » مرة و « خاشعة » مرة ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا : (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ... »

« ومن « التجسيم » وصف المعنوي بمحسوس كوصف العذاب بأنه غليظ : (ومن ورائهم عذاب غليظ) واليوم بأنه ثقيل : (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) والرياح بأنها لواقح تشبيها لها بالحيوان لما تحمل من مطر (وأرسلنا الرياح لواقح) .

« وضرب الأمثلة على المعنوي بمحسوس كقوله : (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) لبيان أن القلب الإنساني لا يتسع

لاتجاهين . ومثل (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها — من بعد قوة — أنكاثا) لبيان العبث فى نقض العهد بعد المعاهدة ... »

وجاء فى ص ٧٤ وما بعدها فى فصل « التناسق الفنى » .

« هنالك المواضع التى يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية . وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير ، والتعبير للتصوير ... مثال ذلك : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) . فإن كلمة « الدواب » تطلق عادة على الحيوان — وإن كانت تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض — ولكن شمولها هذا للانسان ليس هو الذى يبادر إلى الذهن ، لأن للعادة حكمها فى الاستعمال . فاختيار كلمة « الدواب » هنا ثم تجسيم الحالة التى تمنعهم من الانتفاع بالهدى بوصفهم « الصم البكم » كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية التى يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لايؤمنون لأنهم « لا يعقلون » !

* * *

« وقد يستقل لفظ واحد — لا عبارة كاملة — برسم صورة شاخصة — لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة — ... تسمع الأذن كلمة « اثاقلتم » فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟) فيتصور الخيال ذلك الجسم المثاقل ، ليرفعه الرافعون فى جهد فيسقط من أيديهم فى ثقل . إن فى هذه الكلمة «طنا» على الأقل من الأثقال!

« وتقرأ : (وإن منكم لمن ليبطئن) فترتسم صورة التبطئة فى جرس العبارة كلها — وفى جرس « ليبطئن » خاصة وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط فيها حتى يصل إلى نهايتها »

« وتتلو حكاية قول هود . (قال أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟) فتحس أن كلمة « أنلزمكموها » تصور جو الإكراه بإدماج هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويُشدون إليه وهم منه نافرون ! »

وهكذا ...

وفى هذا الفصل عند استعراض آفاق التناسق الفنى فى القرآن ضربت الأمثلة بالموسيقى التصويرية التى تهيئ الجو العام فى مثل :

« والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ... »

فهنا إيقاع موسيقى هادئ لطيف يصور الجو العام الذى يعيش فيه معانى السورة . وهو مخالف حتما للايقاع المنبعث من مثل قوله :

« كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفا صفا ... »

والموسيقى التصويرية لون من ألوان التصوير الفنى بلا جدال .

* * *

التصوير هو القاعدة العامة فى تعبير القرآن ... أكررها مرة ومرة ، لا إصراراً على قول ، ولكن اقتناعاً بعد درس . وكل ما أطلبه إلى الأستاذ عبد المنعم ألا يحاكمنى فى هذا الرأى إلى نص أو مثال . ولكن إلى سمة غالبة ، وإلى شمول فى معنى التصوير كما بينته فى مواضع متعددة من كتابى . وإنى لأطلب إليه وكتابى بين يديه أن يعود فيقرأه كله ثم يقرأ القرآن !

ويبقى تقويم هذا التصوير ، والأستاذ يقول : « إنما بينت أننا لو ربطنا بين سر الإعجاز وبين التصوير الفنى وحده نكون قد سوينا بين تعبير القرآن وبين غيره من مواريث أرباب البيان الرفيع فى كل لغة إذ أننا نجد فى مواريثهم استخدام التصوير الفنى ... »

ولست أدرى كيف يقال هذا الكلام بعد ما رددت به على الأستاذ نجيب محفوظ فى تقويم هذا التصوير فى القرآن وفى الشعر عامة ؟

إن العبرة ليست باستخدام التصوير ، ولكن بمستوى هذا التصوير من التناسق والحياة . وقد كشفت فى كتابى فى مواضع كثيرة عن تفرد التصوير القرآنى فى خصائصه فلم يبق مجال لمثل هذا الاعتراض الذى ينطبق على جميع طرائق التعبير لا على طريقة التصوير وحدها . ولا حكم فيه على أى طريقة . لأن السمة شىء ومستواها شىء آخر والسلام .

سيد قطب

٤٨ ٥ ٢٤